على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين » (١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغيين اهتموا بهما ووضعوا لهما حدوداً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ وقدامة وأبي هلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الاثير من أروع ما كتب وأبدع ما خطه يد بلاغي ناقد ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك العلماء تعريفا للفصاحة أو البلاغة يمكن الركون اليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج » (٢) ويقول : « انا لم نرَ العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للاولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم الفاظا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا أو يستطيعوا ان يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح » (٣).

وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبدالقاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين ، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٤)، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات البلاغة استقرت في عهده وأصبح للفصاحة والبلاغة محتوى واضح .

والفصاحة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

الاول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

---

(١) الايضاح ص٦.

(٢) دلائل الاعجاز ص٢٨.

(٣) دلائل الاعجاز ص٣٥٠.

(٤) دلائل الاعجاز ص٣٥.

القائل : المتكلم كما في «شاعر فصيح أو بليغ»، و «كاتب فصيح أو بليغ».. وتحدث عن فصاحة اللفظة المفردة ، وقال ان الفصاحة تقع صفة للمفرد فيقال «كلمة فصيحة» ولا يقال «كلمة بليغة». ووضع للفظة المفردة شروطا هي خلوصها من :

١ ـ تنافر الحروف : والتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متنافية في الثقل على اللسان كما رُوي أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : «اركبها ترعى الهمخع» .

ومنه ما دون ذلك كلفظة «مستشزرات» في قول امرىء القيس :

غدائرها مستشزرات إلى العلى تضلّ العقاص في مثنّى ومرسل

ولم يشرح القزويني هذا التنافر ولم يذكر علته، وكان ابن سنان قد علله بقوله : «وعلة هذا واضحة وهي ان الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب مابينه وبين الاصفر وبعد مابينه وبين الاسود. واذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش اذا مزجت من الالوان المتباعدة» (١) .

لقد جمعت لفظة «الهمخع» القبح من أطرافه، لان جميع حروفها حلقية ؛ وحرف حلقي واحد يبعث على الثقل فكيف اذا اجتمع الهاء والعين والخاء في كلمة واحدة؟. ولفظة «مستشزرات» ـ وان كانت أخف منها ـ ثقيلة لتوسط الشين التي هي من الحروف المهموسة الرخوة بين التاء التي هي من المهموسة الشديدة والزاي التي هي من المجهورة الرخوة. ويرى النقاد أن امرأ القيس لو قال : «مستشرف» لزال الثقل .

٢ ـ الغرابة : وهي ان تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفته إلى البحث في كتب اللغة ، كما رُوي عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : «مالكم تكاكأتم عليّ تكاكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني» .

---

(١) سر الفصاحة ٦٦.